الإتباع

د. غازي مختار طليمات
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
دبي – الإمارات العربية المتحدة

إذا سألت صديقك عن ولده، فقال : «إنه **عِفْريتٌ نِفريت**» فقد يذهب بك الظنُّ إلى أنه يشفع كلمةً ذات معنى بكلمةٍ لا معنى لها. وإذا قلت له : أسافرتَ إلى الهند ؟ فقال : «**سافرتُ ما فرت**» فقد يُخيَّلُ إليك أنّه يهرفُ بلغو من القول. والحقُّ أنّه أجابك في الأولى بكلام عربيّ فصيح، وفي الثانية بكلام بعضُه فصيح، وبعضه عامّي، فيه لفظة معجمية، ولفظة لم تُسمع عن العرب، لكنّها صيغت صَوْغاً صحيحاً. وسواءٌ أكان في كلامه هذا معنى واضح ينكشف لك، أم معنى غامض تُراوده بالحدس الصادق فتدركه، فإنّه يسلك في كلامه مَسْلكاً يُسمّى «**الإتباع**»، شاع بين العرب الذي يُحتجُّ بكلامهم، وعُني بدرسه علماء اللغة العربية وأصحاب البلاغة.

لقد أشار الروّادُ الأوائل في كتبهم إلى ألفاظ الإتباع وشرحوها، ومنهم أبوالعباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب (١)(ت : ٢٩١هـ). ثم أقبل على درسها علماء القرن الرابع الهجري. فمنهم من كان يخصُّ الإتباع بباب من كتاب، ومنهم من كان يفرد له كتاباً كاملاً. فأبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت : ٣٢١هـ) وقف على الإتباع باباً من كتابه الجمهرة سمّاه «**جمهرة من الإتباع**»(٢)، وأبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي (ت : ٣٥٦هـ) تحدّث عنه في باب عنوانه «الكلام على الإتباع»(٣)، وأبومنصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت: ٤٣٠هـ) ذكره في فصل صغير(٤). وأمّا أبو الطيّب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي (ت: ٣٥١هـ) فقد خصّ الإتباع بكتاب كامل(٥). ثم جاء أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوي (ت: ٣٩٥هـ) فوقف عليه كتاباً(٦) كان – على صغره – أجمع ممّا سبقه وممّا

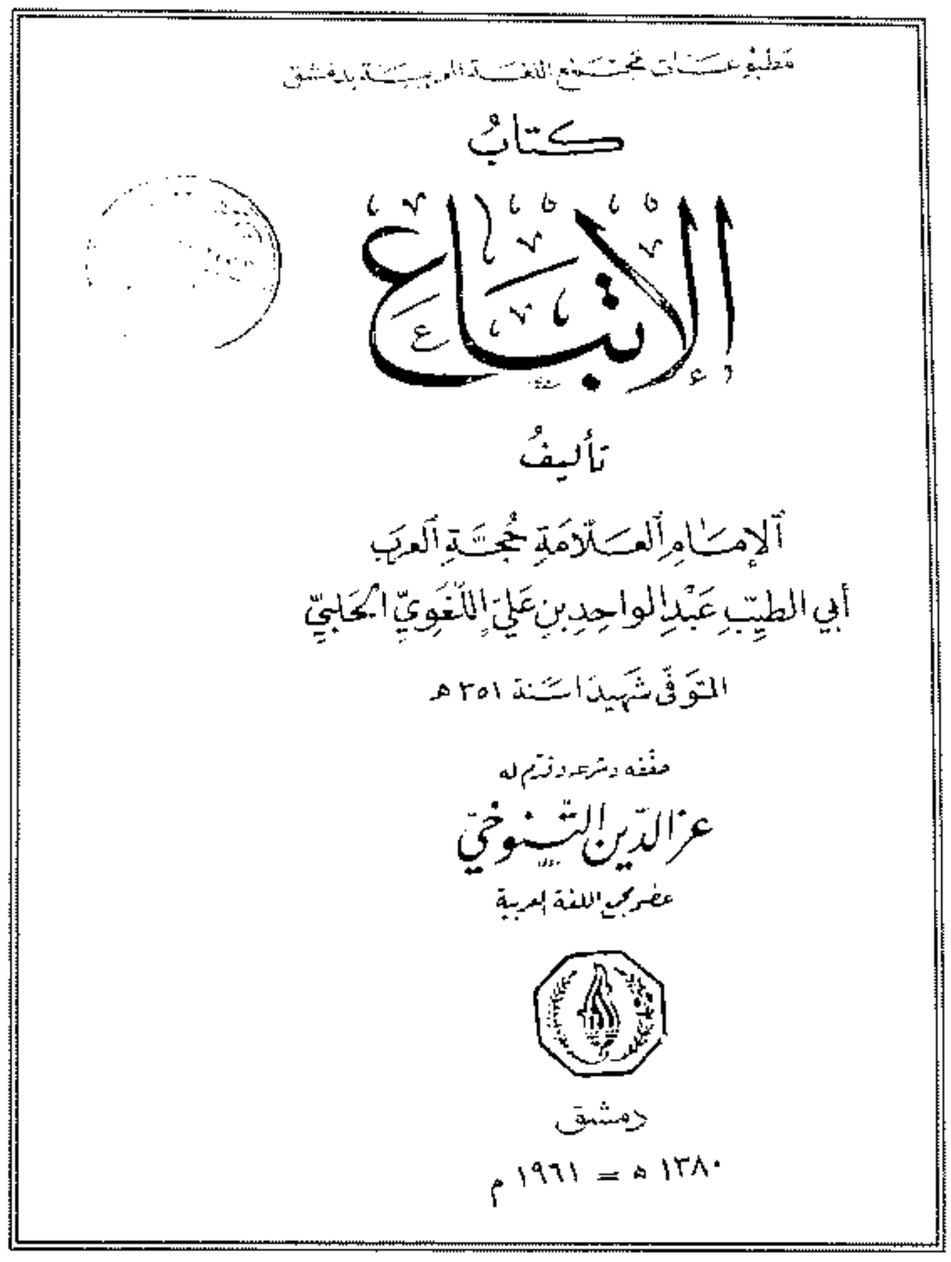
مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

كتابُ

الإتباع

تأليفُ

الإمامِ العلاّمةِ حُجّةِ العربِ

أبي الطيّبِ عبدِ الواحدِ بنِ عليٍّ اللُّغَويِّ الحلبيّ

المتوفّى شهيداً سنة ٣٥١ هـ

صنّفه وشرحه وقدّم له

عزّ الدين التنوخي

عضو مجمع اللغة العربية

دمشق

١٣٨٠ هـ = ١٩٦١ م

لحقه، وأحفل من سواه بما أُثِرَ عن العرب من عبارات الإتباع.

ثم تناول المتأخرون من علماء البلاغة، وعلماء اللغة بحث الإتباع بالتوضيح والتعريف، والجمع والاختصار. ومع ذلك بقي كتاب ابن فارس أكثر الكتب فائدة، وأقلّها حشواً، وأبعدها من النَّفْجِ والمفاخرة. فالإمامُ جلال الدين السيوطي (ت : ٩١١هـ). ذكر كتاب ابن فارس، فقال : «وقد اختصرت تأليفه، وزدت عليه ما فاته في تأليف لطيف سميته : «**الإلماع في الإتباع**»(٧). فإن يكن الذي يفاخر به السيوطيُّ ما ذكره في المزهر، فليس للسيوطي فضل على ابن فارس، لأنّ صنيعه كان اقتساراً عاتياً لا اختصاراً واعياً، ولأنّ مجموع ما ذكره - بعد إغارته على كتاب ابن فارس واختصاره - يشتمل على (١٨٨) عبارة، وهي على كثرتها - نصفُ عبارات ابن فارس، وعدّتُها (٣٤٦). بل إن كتاب ابن فارس أغزرُ عباراتٍ من الكتاب الضخم الذي جمع فيه أبو الطيب اللغوي (٢٢٠) عبارة، وطوّله بالشواهد، وذيّله بالشرح.

هذا عرض سريع لتاريخ التأليف في الإتباع، **فما الإتباع؟ وما أنواعه؟ وما الغرض من استعماله في لغة العرب؟**

عرّف أحمد بن فارس الإتباع، فقال : «**هو أن تُتبع الكلمة الكلمة على وزنها أو رويّها إشباعاً وتأكيداً**»(٨). وضرب له الكسائي أمثلة توضّحه، فقال : هو «كقولهم : **عطشان نطشان، وجائع نائع، وحَسَنٌ بَسَن**، ومثله كثير في الكلام. وإنما سُمي إتباعاً لأنّ الكلمة الثانية إنما هي تابعة للأولى على وجه التوكيد لها، وليس يُتَكَلَّمُ بالثانية منفردة، فلهذا قيل : إتباع»(٩).

وفحوى كلام الكسائي أنّه لا يحقّ للعربيّ أن يقول : فلان نطشان، والطفل نائع، والثوب

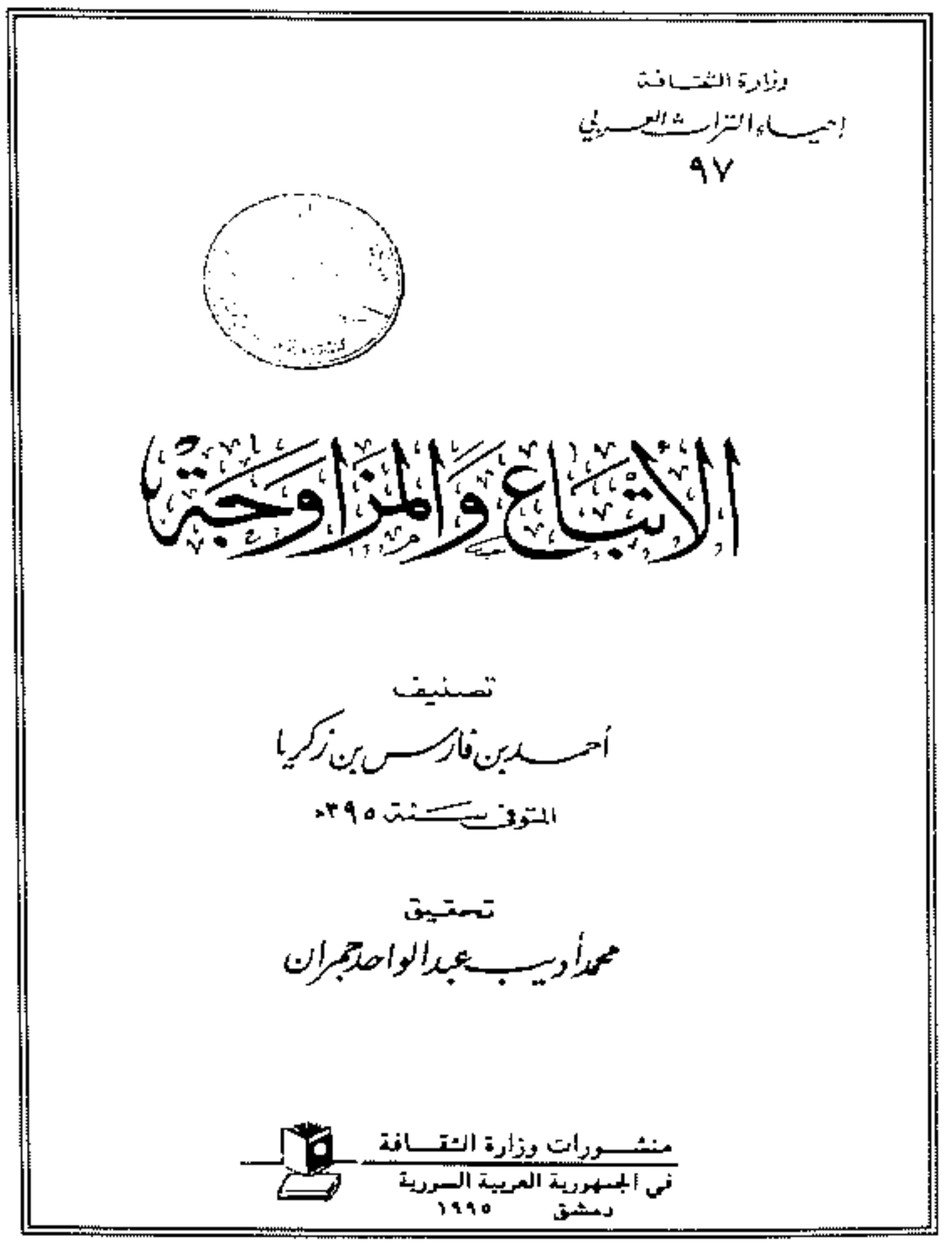
وزارة الثقافة
إحياء التراث العربي
٩٧

الإتباع والمزاوجة

تصنيف

أحمد بن فارس بن زكريا

المتوفى سنة ٣٩٥هـ

تحقيق

محمد أديب عبد الواحد جمران

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٥

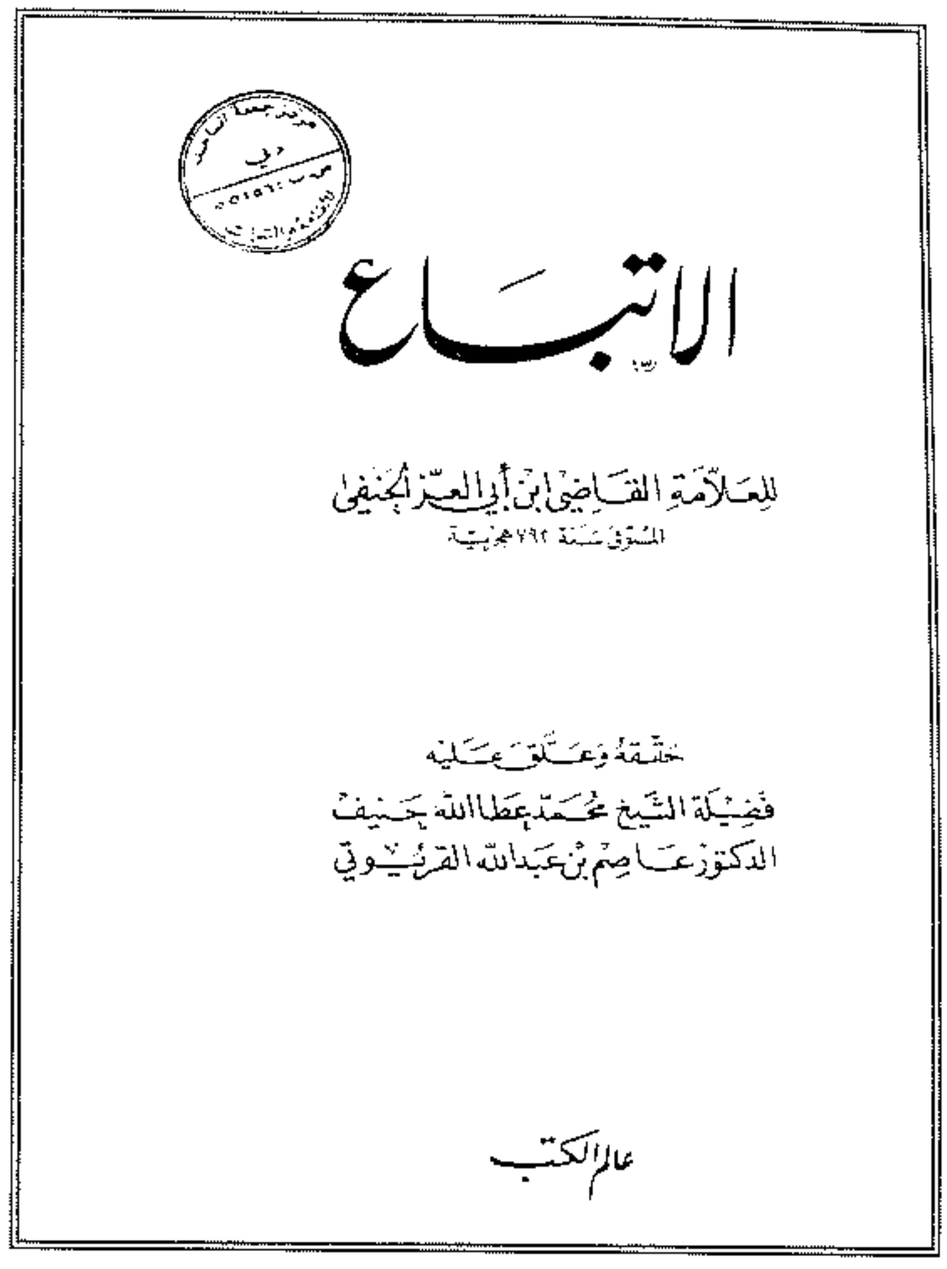

بَسَنٌ، لأنّ هذه الألفاظ كالعربات المقطورة لا تسير إلا إذا سحبتها القاطرة. فهي هياكل لواحق، تستمدُّ حركتها من السوابق التي تشق لها السّبل إلى أذهان السامعين.

وشرط الإتباع عند بعض اللغويين تجرُّدُ التابع من حرف العطف، فإن قلت : فلان ساغبٌ ولاغب لم تغلط، ولكنّك نقلت الكلام من أسلوب الإتباع إلى أسلوب العطف. قال السيوطيّ : «وأما حديث آدم عليه السلام أنّه استحرم حين قتل ابنه، فمكث مائة سنة لا يضحك، ثم قيل له : حيّاك الله وبياك. قال : وما بيّاك؟ قيل : أضحكك. فإن بعض الناس يقول في بيّاك : إنه إتباع، وهو عندي على ما جاء تفسيره في الحديث: إنه ليس بإتباع، وذلك أن الإتباع لا يكاد يكون بالواو، وهذا بالواو»(١٠). ومن يستقرىء عبارات الإتباع يجد أن ما جاء منها بالواو كثير، يكاد يعدل ما تجرّد منها.

وربَما اختلط الإتباع بالترادف، فتوهَم من لا دُرْبَةَ له بكلام العرب أنهما توءمان، والحقّ أنّ بينهما وشيجةً من قُربى، لكنّها لا تبلغُ مبلغ الأخوة. فالمترادفان «كالليث والأسد» يحملان دلالة واحدة، والتابع يردف المتبوع في اللفظ، ولا يردفه في المعنى، لأنه يستمدّ بعض معناه لا معناه كلّه من المتبوع، كما تجذب حديدةٌ يسحبُها مغناطيس حديدةً أخرى، فمتى فَصَلْتَ المسحوبة عن الساحبة حكمت عليها بالشلل، وأفْرَغْتها من قوَّةِ الجذب. قال التاج السبكيّ : «ظنّ بعض الناس أنّ التابع من قبيل الترادف، يُشَبِّهُهُ به، فإن المترادفين يُفيدان فائدةً واحدة من غير تفاوت. والتابع لا يُفيد وحده شيئاً، بل شرط كونه مفيداً تقدُّم الأول عليه»(١١).

ويمكن تقسيم الإتباع إلى ضربين : ضربٍ ثُنائي، وضرب ثُلاثي :

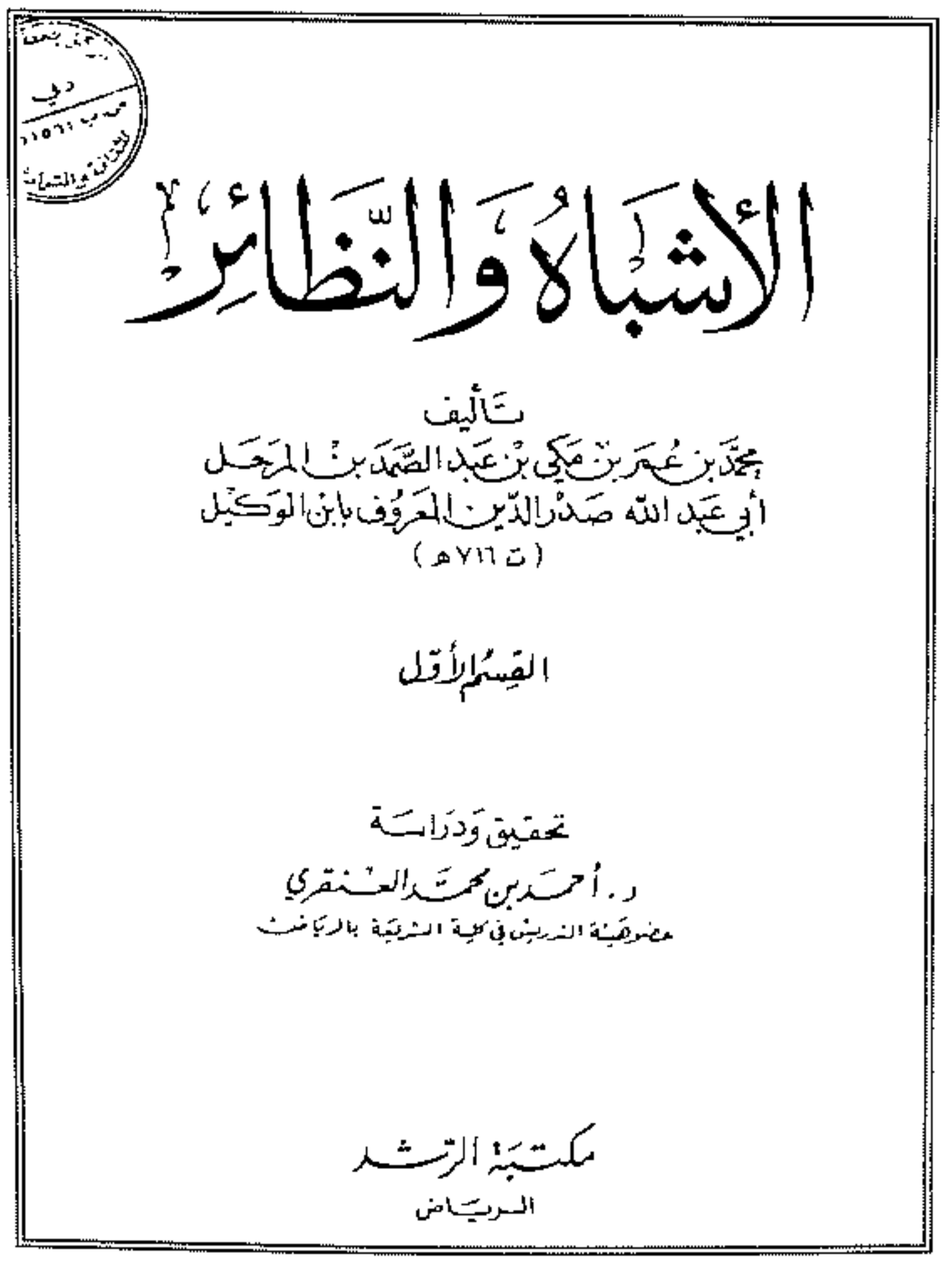

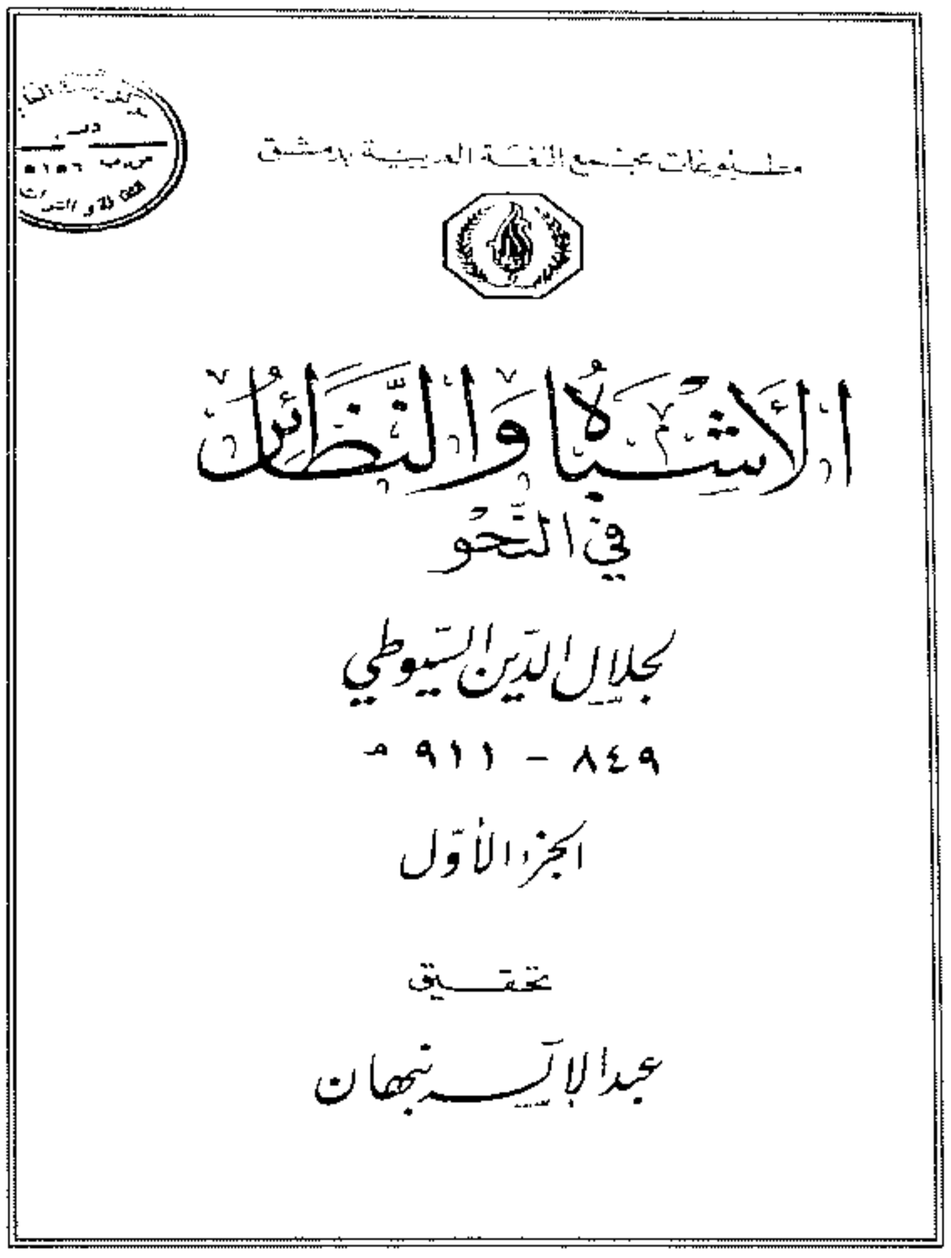

فالثنائيُ، وهو الأكثر، تنطوي كل عبارة من عباراته على كلمتين متجانستين متوازنتين، متساويتين في عدد الأحرف، مختلفتين في حرف واحد. ومثالُه «يقولون للأحمق هفّات لفّات ... وفَرَسٌ غَوْج مَوْج. الغوج : الواسع الخطو، والموج : كأنه يموج ... وقالت امرأة من العرب : إني لأبغض من الرجال الأملح الأقلح. المُلحة : بياض الشيب والقَلَحُ : صفرة الأسنان»(١٢).

والثلاثي – وهو أقل من قسيمه الثنائي – تنطوي كلُّ عبارة من عباراته على ثلاث كلمات متوازنة متجانسة متساوية في عدد الأحرف، مختلفة في حرف واحد أو أكثر، ومثالُه في الدلالة على الكثرة والغزارة «هو كثير بثير بذير»(١٣)، ويقولون في الخسران المبين: «هو خاسر دامر دابر»(١٤) وفي الحمق وضيق الصدر : «هو ضيّق ليّق عيّق»(١٥).

ويقسم الإتباع من ناحية أخرى إلى ضربين آخرين : ضرب يأتي فيه التابع مخالفاً للمتبوع في حرف الرويّ، كقول العرب : «جوعاً له وجوداً وجوساً»(١٦. وهو ضئيل الحظّ من الجمال والذيوع، لا تذكر كتب اللغة نموذجات كثيرة منه.

وضرب يوافق فيه التابع المتبوع في حرف الروي، وهو الأكثر. ومثالُه «تركتْ خيلنا أرض بني فلان حَوْثاً بَوثاً، إذا أثارتْها. ويقال : خبيثٌ نبيثٌ، فيجوز أن يكون إتباعاً، ويجوز أن يكون من ينبث الشرّ، أي : يثيره»(١٧).

والتعليق على العبارة الأخيرة يوحي أن الإتباع المحض هو ما لم يكن فيه التابع ذا معنى محدّد قبل أن ينتظم في سلك الإتباع، وما لم يكن له اشتقاقٌ صرفيّ واضح. قال السيوطي: «قال الآمديّ : التابع لا يُفيد معنى أصلاً. ولهذا قال ابن دريد : سألت أبا حاتم

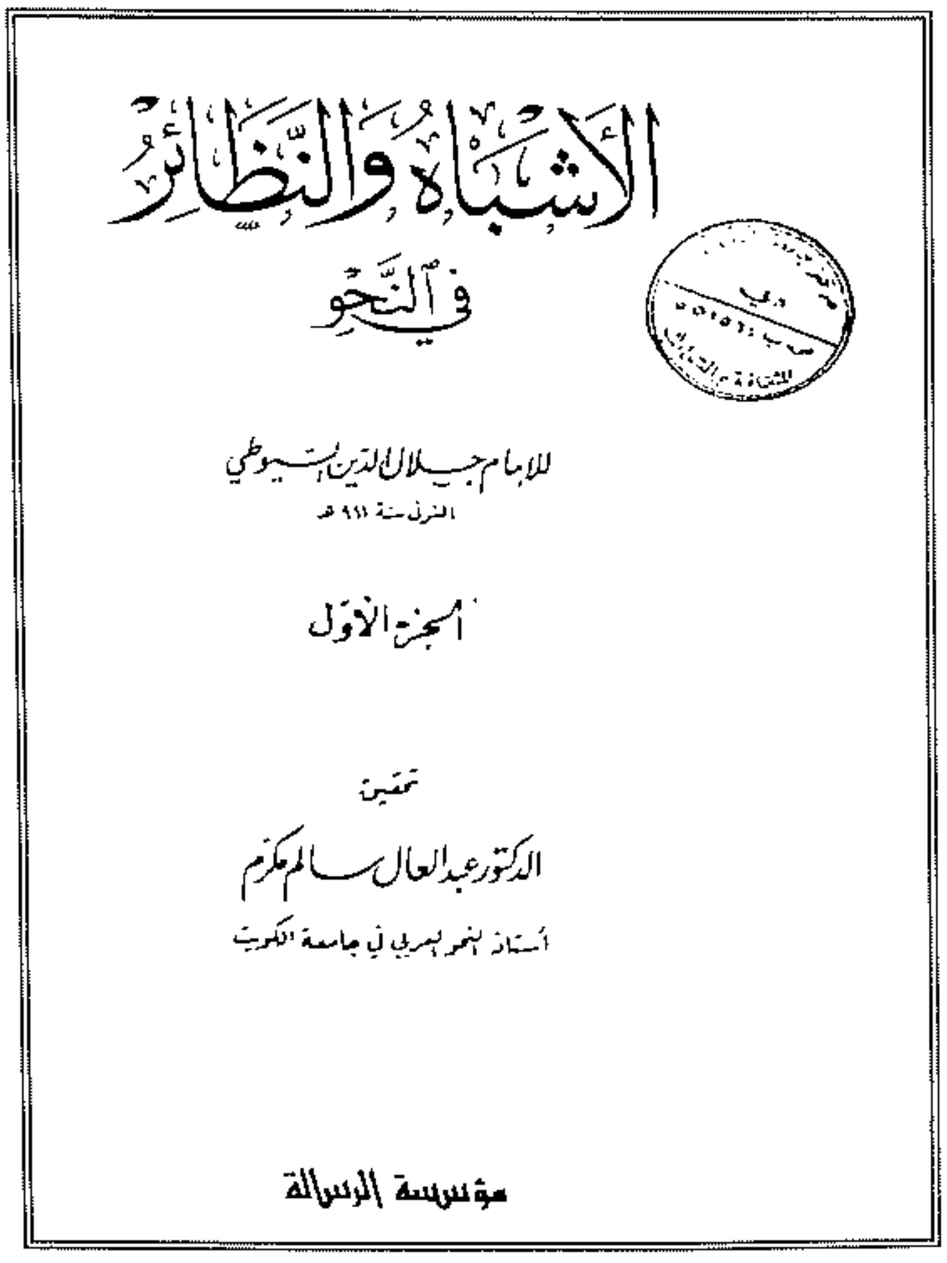

عن معنى قولهم : بَسَن، فقال : لا أدري ما هو»(١٨) لكنّ كلام الآمديّ ليس القول الفصل، فقد ردّ عليه تاج الدين عبدالوهاب بن عليّ السبكيّ (ت : ٧٧١هـ) فقال : «والتحقيق أنّ التابع يُفيد التقوية، فإنّ العرب لا تضعُه سُدى. وجَهْلُ أبي حاتم بمعناه لا يضُرّ. بل مقتضى قوله : – إنه لا يدري معناه – أنّ له معنىً، وهو لا يعرفه»(١٩).

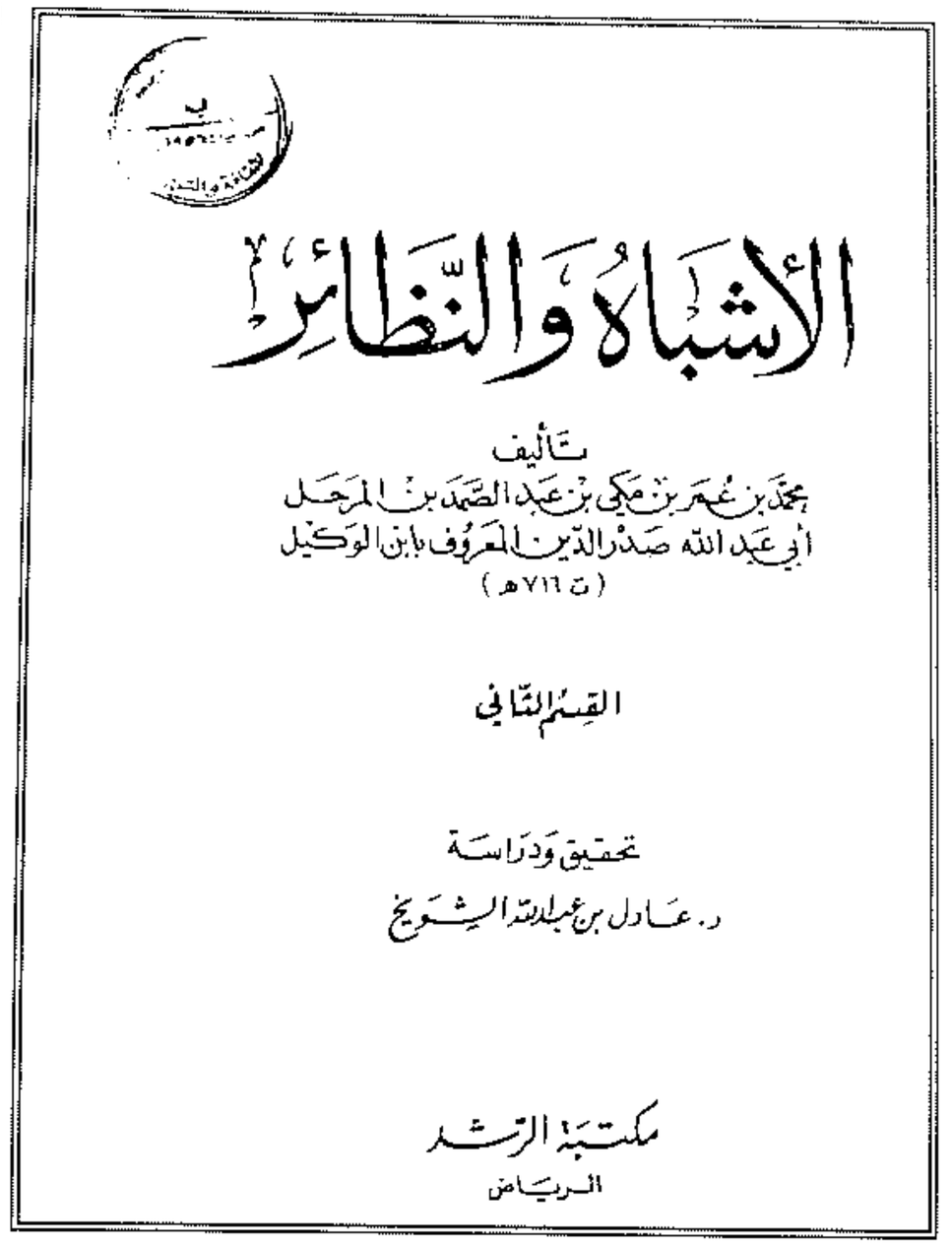

وللقارىء أن يسأل : أكان للعرب غَرَضٌ في استعمالهم الإتباع؟ وهل كانوا يأتونه في جدّ القول وهزله، ومصنوعه ومرتجله؟

يغلب على ظنّنا أن العرب رَمَوْا من الإتباع إلى غرضين : معنويّ وفني.

أما الغرض المعنويّ فهو التوكيد بأسلوب يخالف أسلوبي التوكيد المعنوي واللفظي، وكلاهما توكيد معنويّ نحويّ.

فالتوكيد المعنوي يتمّ بذكر ألفاظ معروفة، منها : كلّ، وكلا، وجميع، ونفس ... كأنْ تقول عاد الغائبان كلاهما. **والتوكيد اللفظيّ** يتمُ بتكرار الكلمة المفردة أو الجملة، كقولك : رويتُ الحديثَ الحديثَ، واللهُ أكبر الله أكبر. أما هذا النمط من التوكيد فهو توكيد في المعنى لا في النحو. فإذا قلت في صفة خدّاع: «هو خبّ ضبّ»(٢٠) فالخبّ خبر أوّل، والضبّ خبر ثان، والتوكيد جاء من تأييد معنى الكلمة الأولى بمعنى الكلمة الثانية. وإذا قلت «الكتاب لك أبداً سمداً سرمداً»(٢١) فكلّ لفظ من هذه الألفاظ ظرف، ولا يعرب اللاحق توكيداً للسابق. وإن شئت التعميم والاختصار في الإعراب فقل : الثاني تابع للأول يؤكّده، ويتبعه في الإعراب، وهذا الكلام مصداق قول ابن فارس : «روي أن بعض العرب سئل عن هذا الإتباع، فقال : هو شيء نَتِدُ به كلامنا»(٢٢).

وأمّا الغرض الفنّي فهو ما يرمي إليه الإتباع من إمتاع، لأنه عند التمحيص، يبدو لك ضرباً من ضروب المجانسة والازدواج، وشكلاً من أشكال السجع، يقرِّب موسيقا النثر من موسيقا الشعر، وينفح السمع بأعذب وقع. وللعرب كَلَفٌ أيُّ كلف بإصلاح الألفاظ، لتسبغ عليها جرساً محبَّبا، حتى إنها لتغيّر هيئة اللفظة، وبناءها الصرفيّ، فتهمز ما لا يُهمز لتوائم المهموز، من ذلك الحديث الشريف «أرجعن مأزورات غير مأجورات»(٢٣) فأصل المأزورات موزورات، لأن اللفظة من الوزر بمعنى الإثم، لا من الأزْر بمعنى القوّة.

وهنا يحسن التنبيه على مسألة نبّه عليها الأستاذ عبد الله العلايلي، وهي أنّ القرآن الكريم – على تنوّع أساليبه الفنية – لم يستعمل الإتباع. قال العلايلي : «ولكن الأمر

الذي يدعو إلى التساؤل عدمُ استعمال القرآن لشيء منه على شتّى ألوان التعبير فيه. وفي الحقّ أنه تساؤل له أهمّيته. وما لا يبعد احتماله أن يكون الإتباع خاصاً بالكلام المرتجل»(٢٤).

وربّما خطر لمعترض أن يعارض العلايليّ، فيذهب إلى أن في القرآن الكريم إتباعاً، ومنه قوله تعالى ﴿**وجئتك من سَبَأ بنبأ يقين**﴾(٢٥). وهو اعتراض مرفوض مدحوض، لأنّ لفظة بنبأ ليست تابعة للفظة سبأ، وورود الكلمتين على هذا النحو ضرب من الازدواج والمجانسة والتكرير. قال القزويني ـ «وإذا ولي أحدُ المتجانسين الآخر سُمي مزدوجاً ومكرّراً ومردّداً، كقوله تعالى : ﴿**وجئتك من سبأ بنبأ يقين**﴾(٢٦).

وخلاصة القول: إن الإتباع أسلوب طريف من أساليب الكلام العربي، فيه الرشاقة والتناغم وتقوية المعنى، وهو إلى الارتجال أقرب منه إلى القصد، وبالطرافة أشبهُ منه بالحصافة، وهو برهان واضح على ما في لغتنا المعجزة من ثراء وتنوّع.

هوامش البحث ومصادره

١ – مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام محمد هارون . ـ القاهرة، ١٩٦٠م، ص١٩٨ – ٢٠٦.

٢ – ابن دريد، جمهرة اللغة، حيدر آباد، ١٣٤٤هـ، ٤٢٩:٣.

٣ – الأمالي للقالي، عني بطبعه لويس شيخو، ٢٠٨:٢ – ٢١٨.

٤ – الثعالبي، فقه اللغة وسرّ العربية، تحقيق السقا والأبياري . ـ القاهرة، ١٩٧٢م، ص٣٧٢.

٥ – أبو الطيب اللغوي، كتاب الإتباع، تحقيق عز الدين التنوخي . ـ دمشق، ١٩٦١م.

٦ – ابن فارس، الإتباع والمزاوجة، تحقيق د. كمال مصطفى . ـ القاهرة، ١٩٤٧م.

٧ – للسيطوي، المزهر، تحقيق جاد المولى وصاحبيه . ـ القاهرة، ٤١٤:١.

٨ – الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس، تحقيق السيد أحمد صقر . ـ القاهرة، ١٩٧٧م، ص٤٥٨.

٩ – المزهر، ٤١٥:١.

١٠ – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

١١ – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

١٢ – الإتباع والمزاوجة، ص٣٢ – ٣٥.

١٣ – الإتباع والمزاوجة، ص٤٢.

١٤ – المصدر السابق، ص٤٣.

١٥ – المصدر السابق، ص٦٠.

١٦ – المصدر السابق، ص٥٤.

١٧ – المصدر السابق، ص٣٣.

١٨ – المزهر، ٤١٥:١.

١٩ – المصدر السابق، ٤١٥:١.

٢٠ – الإتباع والمزاوجة، ص٢٩.

٢١ – المصدر السابق، ص٣١.

٢٢ – المصدر السابق، ص٢٨.

٢٣ – السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق عبد الإله نبهان، دمشق، ١٩٨٥م، ٢٠:١.

٢٤ – العلايلي، عبد الله، مقدمة لدرس لغة العرب، القاهرة، ص٢٢٠.

٢٥ – سورة النمل، الآية ٢٢.

٢٦ – القزويني، الإيضاح، ص٢١٩.